الأستاذ أحمد العثماني

ألواح جزولة والتشريع الإسلامي

دراسة لأعراف قبائل سوس في ضوء التشريع الإسلامي

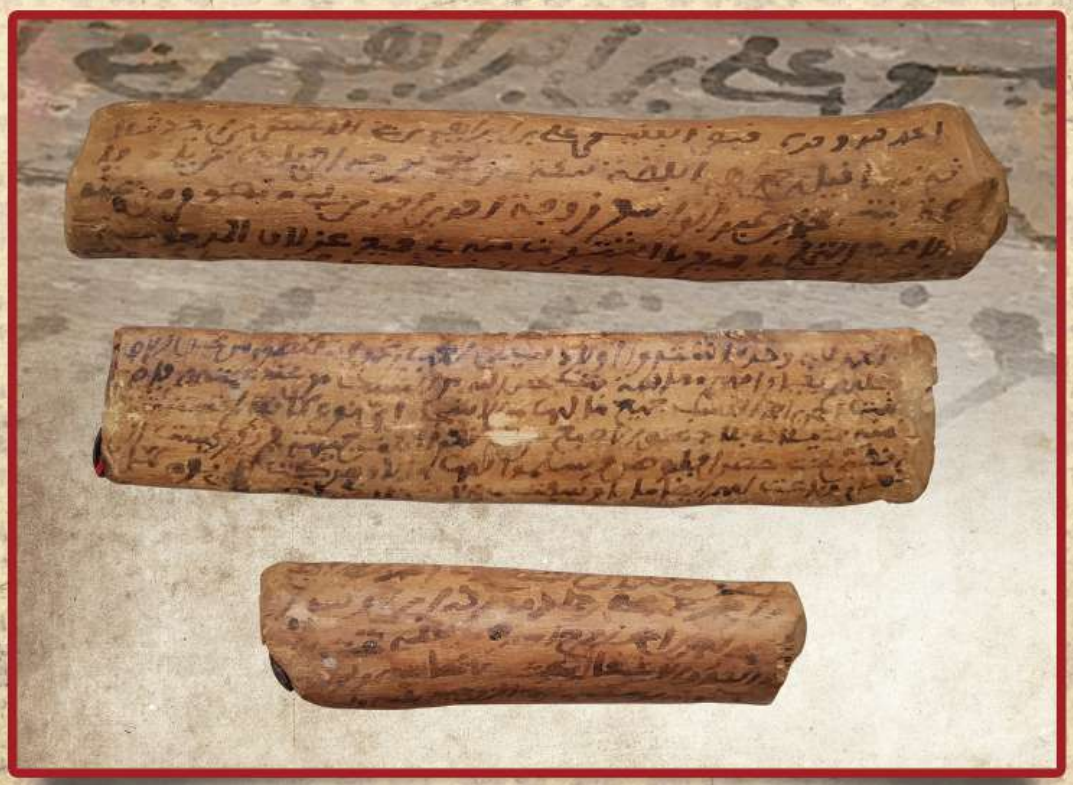

دار الأمان
الرباط

الأستاذ أحمد العثماني
ألواح جزولة والتشريع الإسلامي
دار الأمان
الرباط

ترجمة الأستاذ امحمد العثماني

بقلم سعد الدين العثماني

ينتمي الأستاذ امحمد بن عبد الله بن محمد العثماني (1340 هـ/1922 م- 1404 هـ/1984 م) إلى أسرة علمية عريقة يوجد فروع لها في أماكن متفرقة من الإقليم السوسي. أنجبت العديد من العلماء والصلحاء. وقد خصص لها الأستاذ محمد المختار السوسي أكثر من ستين ومئة صفحة في الجزء السابع عشر من كتابه التاريخيّ، **"المعسول"**. وفي بداية ذلك التعريف قال الأستاذ المختار (ص. 43): "وبهذه المناسبة يجب علينا أن نؤدي الحق لهذه الأسرة المباركة العثمانية بجميع فروعها على حسب ما نعلم" إلى أن قال:

> والله يوفقنا ويسدّد خطانا حتى نؤدي ما علينا من حق أكيد لهذه الأسرة التي تسلسل فيها العلم والصلاح في "سوس" منذ القرن السادس إلى الآن. ولم أعرف الآن في المغرب أسرة تسلسل فيها العلم أباً عن جدّ في زهاء ألف سنة إلاّ هذه، والأسرة الفاسية بفاس التي عرفت أول عالم منها في أواخر القرن الخامس وهي مزية انفردت بها الأسرتان وحدهما.

وقد ذكر المختار السوسي من رجالاتها المعروفين بالعلم والتدريس أو بالصلاح قريباً من مئتي شخصية.

أما والد الأستاذ العثماني، فهو عبد الله السوسي، الجرسيفيّ أصلاً (1302 هـ- 1388 هـ/ 1968 م) من فخذ الأسرة الذي استقر بأكَرسيف، ثم بأسكَّاور من أملن بناحية تافراوت بإقليم تزنيت.

كان فقيهاً معروفاً بالصلاح. أمضى حياته في الإمامة والتدريس. لكن الأستاذ المختار السوسيّ ينوّه أساساً بمعرفته بتاريخ المنطقة، ويقول عنه في **"المعسول"** (ج 17، ص. 159): **"هذا هو مؤرخ الأسرة، وأنبه رجالاتها اليوم. وهو الذي يفيدنا بجميع ما نكتبه عن رجالات أسرته، وعن غيرهم في تلك الجهات، بل هو المؤرخ الوحيد الذي يقدّر هذا الفن حقّ قدره، ولم نر له نظيراً في جزولة، مع تثبت وتبصر وصدق في النقل، وسداد في الرأي"**. ويقول عنه أيضا: **"وهذا السيد آية الآيات في الاستحضار لكل ما كان طالَعه، مع حرصه الشديد على الازدياد كل حين بكل جديد (...) وهو من أحبائنا نفعنا الله به في ما نحن بصدده"**. وكانت له صداقة خاصة مع الأستاذ المختار السوسيّ.

أخذ الأستاذ امحمد العثماني القرآن الكريم والمبادئ العربية عن والده وهو بعد صغير. ودرس عليه وعلى علماء المنطقة بعض مبادئ العلوم الشرعية قبل أن يلتحق بمدرسة "تانالت" بأيت صواب (إقليم شتوكة أيت بها) عند الشيخ العلامة الحبيب بن إبراهيم البوشواري المعروف بالحاج الحبيب التانالتي، والمشهور بعلمه وصلاحه. فلازمه أزيد من ست عشرة سنة، من حوالي 1356 هـ إلى 1372 هـ. ودرس عليه مختلف الفنون مما كان متداولاً في المدارس العلمية السوسية آنذاك. ولم يكن العلاّمة الحاج الحبيب مجرد أستاذ لتلاميذه، بل كان لهم أيضا شيخاً مربّياً، وكان ذا نفحة صوفية، كثير العبادة والتهجّد، جمَّ التواضع، زاهداً، متفرغاً للتعليم والتربية والتوجيه. وكان المثل الأعلى في سوس كلها في الصلاح والعلم والجهاد ما يقرب من نصف قرن من الزمان، وتخرج على يده أفواج من

العلماء تميزوا بما نفخ فيهم من حيوية الإيمان، وقوة العلم، وتحرر الفكر...

وكان الأستاذ العثماني أحظى تلاميذ الشيخ عنده، ومن أكثرهم تأثراً به. وقد كتب إليه، بعد مغادرته لمدرسة "تانالت"، رسائل تعكس إعجابه به وعرفانه بجميله عليه. ووجه إليه قصائد تعرض فضائله وتثني عليه. وقد انخرط الأستاذ العثماني في فترة تلمذته بـ"تانالت" في العمل الوطني، والتعبئة ضد الحماية الفرنسية. وكان هذا طبيعيّاً، لأن الشيخ محمد الحبيب كان من كبار المقاومين للاستعمار عند محاولاته دخول منطقة سوس. وكان الأستاذ العثماني رأس خلية من خلايا المقاومة الوطنية في أيت صواب. ونفته سلطات الحماية الفرنسية إلى مسقط رأسه بتافراوت حوالي 1950 م. ولما سُمح له بالعودة إلى مدرسة "تانالت" التي يدرس بها، بقي مدة تحت الحراسة والمراقبة حتى لا يتصل بأحد.

وابتداء من سنة 1953 م، عمل إماماً وأستاذاً بعدد من الجوامع والمدارس العتيقة بسوس، ثم حصل على شهادة العالمية من جامع القرويين في مارس 1958 م. وفي فاتح أكتوبر 1962 م، انتقل للتدريس بالمعهد الإسلامي بتارودانت. وهو المعهد الذي أسسته "جمعية علماء سوس" منذ سنة 1956 م، في إطار مشروع نهضة علمية طموحة بالمنطقة. وعلى الرغم من هذا الالتحاق المتأخر للأستاذ امحمد العثماني بالمعهد، فإنه ما لبث أن قام بدور رائد في استمرار المعهد في أداء رسالته. ولما تأسست دار الحديث الحسنية بالرباط، كان ضمن أوَّل فوج التحق بها سنة 1964 م. ونال منها دبلوم الدراسات العليا سنة 1971 بهذا البحث

"ألواح جزولة والتشريع الإسلامي" تحت إشراف الأستاذ علاّل الفاسي.

وقد تقلب بعدها في عدة مهام نذكر منها، بالخصوص، أنه كان ملحقاً برئاسة جامعة القرويين بفاس في دجنبر 1966 م لمدة سنتين، فمرشداً للطلبة الأفارقة في معاهد تارودانت وفاس ومكناس ابتداء من فاتح دجنبر 1969، فمكلَّفاً بمراقبة المدارس العتيقة بسوس وحاحة وإحصائها ابتداء من سنة 1971، فأستاذاً مساعداً بكلية اللغة العربية بمراكش ابتداء من 1973، ثم أستاذاً محاضراً ابتداء من 1975، ثم أستاذاً محاضراً بكلية الشريعة بأكَادير ابتداء من 1982 إلى حين وفاته.

ولقد كان للجوّ العامّ السائد في منطقة سوس والتحديات التي عاشتها قبيل الاستقلال وبعده دورٌ أساسيٌّ في توجيه اهتمامات الأستاذ العثماني ونشاطه وإنتاجه. فالمعروف عن سوس تشبث أهله الشديد بالدين، وعنايتهم بالعلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية وآدابها وتدريسها ونشرها والتأليف فيها. وقد أقام السوسيون لذلك حوالي مئتي مدرسة علمية، اصطلح على تسميتها بالمدارس العتيقة. وكثير منها لا يزال يؤدي دوره إلى اليوم على الرغم من هزال الإمكانات وقلة الاهتمام المعنويّ والمادّيّ.

ولقد ركزت الحماية الفرنسية منذ دخلت المغرب على فصل "البربر"- ومن بينهم سكان سوس- عن العرب، إثارة للتفرقة بين المغاربة، وتسهيلاً لإبقاء سيطرتها، ومحاولةً لإبطال مفعول أيّ مقاومة لها. كما كانت تهدف بوضوح إلى سلخ المنطقة عن الإسلام، لأنه ضمان وحدة المغاربة، وموقد جذوة مقاومة الاستعمار.

ولقد كانت هذه السياسة الاستعمارية، وخصوصاً ما اصطلح عليه بـ"الظهير البربري"، المشعل الأساسيّ لمقاومة شعبية متصاعدة شملت القبائل الأمازيغية كما شملت مختلف مدن وقرى المغرب. وكان لكل ذلك صداه في ربوع سوس، فتجنَّد علماؤها وفقهاؤها لمواجهة مؤامرات سلطات الحماية بكل وسيلة. وقد كان من بين أوجه تلك المقاومة تأسيس "جمعية علماء سوس" بمدينة مراكش في خامس أبريل 1953. وجعل المؤسسون رئاستهم الشرفية للأستاذ محمد المختار السوسي وهو آنذاك في معتقله بتنجداد في صحراء تافيلالت. وبقيت الجمعية تعمل في الخفاء بسبب الضغط الاستعماري إلى أن أعلن استقلال المغرب. وقد عملت الجمعية بعد ذلك وفق برنامج إصلاحيّ واسع ومتكامل ركز على تعليم المبادئ والأحكام الشرعية في المساجد والإسهام في عملية التوعية الشعبية، والعمل على إصلاح نظام المدارس العلمية العتيقة وتطويرها، وإنشاء المعاهد التعليمية، التي كان المعهد الإسلامي بتارودانت المذكور آنفاً أهمها. كما رفعت الجمعية ملتمسات متتالية إلى الجهات المسؤولة مطالبة بالعمل على صيانة الأخلاق والقضاء على الفساد وإصلاح العدالة والتعليم، وتعميم اللغة العربية، وغيرها. وكانت أسرة الأستاذ امحمد العثماني مجنَّدةً بقوة في مشروع جمعية علماء سوس. ونذكر، مثالاً على ذلك، ذلك الوفد من علماء سوس الذي استقبله جلالة الملك محمد الخامس في دجنبر 1955، وكان يضم 130 شخصية، كان من بينهم فقيهنا امحمد العثماني، ووالده عبد الله، وشقيقه الأكبر الأديب الشاعر محمد العثماني. وهذا الأخير هو الذي تلا كلمة الجمعية أمام جلالة الملك.

لقد كان لهذا الجو ولهذه المعركة أثر بعيد المدى على تكوين الأستاذ امحمد العثماني واهتماماته. ويمكن أن نختصر المحاور الكبرى لإسهاماته في مواجهة تأثيرات ومخلفات السياسة الاستعمارية المذكورة في أربعة محاور هي:

1. **إصلاح المدارس العتيقة بسوس:** فقد كان من رهانات الفقيه العثماني إصلاحها وتجديد مناهج التدريس بها لتتبوأ المكان العلميّ اللاّئق بها وبماضيها. ولما كلف من قبل وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصيل بمسؤولية "مراقبة المدارس العتيقة بسوس وحاحة وإحصائها"، قام بزيارة أغلب تلك المدارس متفقداًً ومرشداً. وترك عدداً مهماً من التقارير التي تتضمن تشخيصا لوضعيتها واقتراحات مستفيضة لحلّ مشاكلها.ولا تزال تلك التقارير مرجعاً أساسيّاً للعديد من الباحثين في الموضوع.

2. **الدفاع عن التعليم الأصيل:** فلقد بقي الأستاذ العثماني مكافحاً عن التعليم الأصيل حتى لا يذوب في التعليم الرسميّ ولا يهمَّش، وحتى لا تنقص فاعليته وجِدَّته. وكان له دورٌ رائدٌ في استمرار رسالة المعهد الإسلاميّ بتارودانت؛ كما كان من الذين بذلوا أقصى جهودهم حتى تم إنشاء كلية الشريعة بأيت ملّول (عمالة إنزكَّان- أيت ملول). وقد تطوع هو ومجموعة من الأساتذة للتدريس بها مجاناً طيلة سنتها الأولى إلى أن سوِّيت وضعيتها.

3. **بعث تراث سوس الإسلاميّ:** لقد كان مما يقضّ مضجع العثماني أن يهمَل التراث المخطوط للمنطقة، وأن يُحكَم على كثير منه بالتآكل والاندثار على الرغم من أنه يضم ثروة علمية ضخمة تشهد لمساهمة علماء سوس في المحافظة على الإسلام

وعلومه في هذا الجزء من أرض المسلمين. فصمم على العمل لبعث هذا التراث وإخراجه من دائرة النسيان، وجمعه باستنطاق الآثار وأفواه الرجال، والبحث عن المخطوطات في الخزانات المبعثرة هنا وهناك. لذلك جاب المنطقة، بحثاً عن مآثر العلماء وكتاباتهم في كلّ مكان حتى أصبح مرجعاً في تاريخ سوس وماضيها. وكان أشدّ ما يشكو من الذين يضنُّون على الباحثين بما لديهم من وثائق ومخطوطات فلا يستفيدون منها ولا يفيدون، ثم يتركونها حتى تتلاشى. فيقول، مثلاً، في حلقة من حلقات برنامجه الإذاعيّ **"معالم من تاريخ سوس"**:

> في القطر السوسيّ خزائن لا تقدر بثمن. غير أنها في كثير من الأحيان في يد من لا يحسن صيانتها واستغلالها، والنفع والانتفاع بها. فكثير منهم يظن ويعتقد أن الوكاء عليها حتى عن الهواء من المبّرات، وليس يعلم أن ذلك جناية عليها وعلى نفسه وعلى غيره تعدّياً وظلماً، وهو يحسب أنه يحسن صنعاً.

وكان أوّل إنتاجه في هذا المجال هذا البحث: **"ألواح جزولة والتشريع الإسلاميّ"**، ليثبت أن التشريعات التي كان يسير عليها أبناء المنطقة على مدى قرون، والتي تسمى الألواح أو الأعراف، كانت توضع بمساهمة علماء المنطقة، وأنها كانت مستمَدَّة من الشرع الإسلاميّ.

وبعد أن قام بتحليل مضمون الألواح في ضوء الشريعة الإسلامية، استخلص عمق ارتباط التراث القضائيّ للمنطقة بالدين. يقول: "إن الألواح يتجلى فيها روح الدين الإسلامي، وتهدف إلى ما يهدف إليه الإسلام من مقاصد تجعل الناس آمنين مطمئنين، متبعة في ذلك المصالح المرسلة، والسياسة الشرعية وسد الذرائع وفتحها". وكان الأستاذ العثماني يضع خزانته، التي

تتضمن العديد من المصادر والوثائق، رهن إشارة الباحثين وطلبة العلم.

4. **بعث الوعي الديني:** فكان يقوم بمهام الوعظ والتوجيه التربوي والديني والإفتاء أساساً بالأمازيغية (بتاشلحيت، لهجة أهل سوس) في المساجد والمنتديات، ومن خلال بعض البرامج الإذاعية، وخصوصاً البرنامج الأسبوعي في الإذاعة الوطنية **"إسقسيتن- ن- دّين"**، أي "أسئلة الدين". وهو البرنامج الذي كان يجيب من خلاله على أسئلة المستمعين الدينية. وكان برنامجاً ناجحًا استمر أكثر من خمسة عشر سنة، من أواخر الستينيّات إلى تاريخ وفاته رحمة الله عليه. وعلى الرغم من أن لمترجَمنا قصائد شعرية، فإنها قليلة. فغلب عليه وصف الفقه مقابل غلبة وصف الشعر على شقيقه الأكبر محمد، فاشتهر هو بالعثماني الفقيه مقابل اشتهار أخيه بالعثماني الشاعر.

له من الإخوة- إضافةً لمحمد الأديب الشاعر- أحمد وإبراهيم والحسن. وقد توفوا كلهم إلاّ إبراهيم الذي أمضى حياته في التدريس، أطال الله عمره.

آثاره العلميّة

على الرغم من أن أكبر نشاط العلاّمة امحمد العثماني يتلخص في التدريس في مختلف مستوياته وفي نشاط الوعظ والتوجيه الدينيّ، فإنه خلَّف آثاراً علميّةً متنوعة:

1. **ألواح جزولة والتشريع الإسلاميّ**، وهو هذا الكتاب؛
2. **معالم من تاريخ سوس**، حلقات إذاعية مهتمة بعرض جوانب من التراث العلميّ والفكريّ لمنطقة سوس؛

3. **فتاوى دينية بالأمازيغية،** هي عبارة عن أجوبة على أسئلة المستمعين أذيعت في البرنامج الأسبوعيّ "إيسقسيتن- ن- دّين" بالإذاعة الوطنيّة بالرباط- قسم تاشلحيت؛
4. تقارير حول المدارس العتيقة بسوس؛
5. مجموعة من الخطب والمذكرات الشخصيّة.

توفي الأستاذ امحمد العثماني بالدار البيضاء يوم 27 جمادى الثانية 1404 هـ موافق 30 مارس 1984 م، وخلَّف من الأبناء: سعد الدين، وفريد زين الدين، وثريّا، وتوفيق، وخالد، وصلاح الدّين.

صورة شخصية للمؤلِّف
الأستاذ امحمّد العثمانيّ